الفصل الرابع

مقابلة السيئة بالإحسان

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾

في الحديث عن آداب الدعاة ، وعن الدعوة إلى الله تعالى ، يرسم البيان الإلٰهي ذلك بشكل واضح بيِّن ، فيقول الله تعالىٰ :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت : ٣٣ـ٣٦] .

وفي سبب النزول :

﴿ومن أحسن قولاً . . .﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : هو رسول الله ﷺ ، دعا إلى الإسلام ، وعمل صالحاً فيما بينه

وبين ربه ، وجعل الإسلام نِحْلة ، وقال أيضاً : هم أصحاب رسول الله ﷺ .

وقالت عائشة وعكرمة ومجاهد : نزلت في المؤذنين .

وقال أبو حيان : وينبغي أن يتأول قولهم على أنهم ـ أي المؤذنون ـ داخلون في الآية ، وإلا فالسورة بكاملها مكية بلا خلاف ، ولم يكن الأذان بمكة ، إنما شُرع بالمدينة المنورة ، والدعاء إلى الله يكون بالدعاء إلى الإسلام وبجهاد الكفار وكف الظلمة .

والآية الثانية : ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة . . .﴾ نزلت في أبي سفيان بن حرب ، وكان عدواً مؤذياً لرسول الله ﷺ ، فصار ولياً معروفاً .

وروي أيضاً أنها نزلت في أبي جهل ، كان يؤذي النبي ﷺ ، فأمر النبي بالعفو عنه ، وقيل له : ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة . . .﴾[1] .

ورحم الله الفخر الرازي (ت : ٦٠٤هـ) عندما وقف بشيء من التحليل عند هذه الآيات فقال : اِعلم أن في الآية مسائل :

---

(١) للتوسع يراجع : أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٥١ .

ـ **المسألة الأولى** : أنا ذكرنا أن الكلام من أول هذه السورة إنما ابتدئ حيث قالوا للرسول : ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ [فصلت : ٥] . ومرادهم ألا نقبل قولك ولا نلتفت إلى دليلك ، ثم ذكروا طريقة أخرى في السفاهة ، فقالوا : ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ [فصلت : ٢٦] .

وإنه سبحانه ذكر الأجوبة الشافية ، والبيانات الكافية في دفع هذه الشبهات وإزالة هذه الضلالات .

ثم إنه سبحانه وتعالى بيَّن أن القوم وإن أتوا بهذه الكلمات الفاسدة ، إلا أنه يجب عليك تتابع المواظبة على التبليغ والدعوة ، فإن الدعوة إلى الدين الحق أكمل الطاعات ورأس العبادات ، وعبَّر عن هذا المعنى فقال : ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾ فهذا وجه شريف حسن في نظم آيات هذه السورة ، وفيه وجه آخر ، وهو أن مراتب السعادات اثنان : التام ، وفوق التام .

أما التام : فهو أن يكتسب من الصفات الفاضلة ما لأجلها يصير كاملاً في ذاته ، فإذا فرغ من هذه الدرجة اشتغل بعدها بتكميل الناقصين وهو فوق التام ، إذا عرفت هذا فنقول إن قوله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت : ٣٠]

إشارة إلى المرتبة الأولى ، وهي اكتساب الأحوال التي تفيد كمال النفس في جوهرها ، فإذا حصل الفراغ من هذه المرتبة وجب الانتقال إلى المرتبة الثانية ، وهي الاشتغال بتكميل الناقصين ، وذلك إنما يكون بدعوة الخلق إلى الدين الحق ، وهو المراد من قوله : ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله﴾ فهذا أيضاً وجه حسن في نظم هذه الآيات .

واعلم أن من آتاه الله قريحة قوية ونصاباً وافياً من العلوم الإلٰهية الكشفية ، عرف أنه لا ترتيب أحسن ولا أكمل من ترتيب آيات القرآن .

ـ **المسألة الثانية** : من الناس من قال المراد من قوله ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله﴾ هو الرسول ﷺ ، ومنهم من قال هم المؤذنون ، ولكن الحق المقطوع به أن كل من دعا إلى الله بطريق من الطرق فهو داخل فيه . وللدعوة إلى الله مراتب :

فالمرتبة الأولى : دعوة الأنبياء عليهم السلام راجحة على دعوة غيرهم من وجوه :

أحدها : أنهم جمعوا بين الدعوة بالحجة أولاً ، ثم الدعوة

بالسبق ثانياً ، وقلما اتفق لغيرهم الجمع بين هذين الطريقين .

وثانيها : أنهم هم المبتدئون بهذه الدعوة ، وأما العلماء فإنهم يبنون دعوتهم على دعوة الأنبياء ، والشارع في إحداث الأمر الشريف على طريق الابتداء أفضل .

وثالثها : أن نفوسهم أقوى قوة ، وأرواحهم أصفى جوهراً ، فكانت تأثيراتها في إحياء القلوب الميتة وإشراق الأرواح الكدرة أكمل ، فكانت دعوتهم أفضل .

ورابعها : أن النفوس على ثلاثة أقسام : ناقصة وكاملة لا تقوى على تكميل الناقصين وكاملة تقوى على تكميل الناقصين .

فالقسم الأول : العوام ، والقسم الثاني : هم الأولياء ، والقسم الثالث : هم الأنبياء ، ولهذا السبب قال ﷺ : « علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل » .

وإذا عرفت هذا فنقول : إن نفوس الأنبياء حصلت لها مزيتان : الكمال في الذات ، والتكميل للغير ، فكانت قوتهم على الدعوة أقوى ، وكانت درجاتهم أفضل وأكمل ، إذا عرفت هذا فنقول : الأنبياء عليهم السلام لهم صفتان : العلم

والقدرة : أما العلماء فهم نواب الأنبياء في العلم ، وأما الملوك ، فهم نواب الأنبياء في القدرة ، والعلم يوجب الاستيلاء على الأرواح ، والقدرة توجب الاستيلاء على الأجساد ، فالعلماء خلفاء الأنبياء في عالم الأرواح ، والملوك خلفاء الأنبياء في عالم الأجساد ، وإذا عرفت هذا ظهر أن أكمل الدرجات في الدعوة إلى الله بعد الأنبياء درجة العلماء ، ثم العلماء على ثلاثة أقسام : العلماء بالله ، والعلماء بصفات الله ، والعلماء بأحكام الله ، أما العلماء بالله فهم الحكماء الذين قال الله تعالى في حقهم : ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] وأما العلماء بصفات الله تعالى فهم أصحاب الأصول ، وأما العلماء بأحكام الله فهم الفقهاء ، ولكل واحدٍ من هذه المقامات ثلاث درجات لانهاية لها ، فلهذا السبب كان للدعوة إلى الله درجات لانهاية لها .

وأما الملوك فهم أيضاً يدعون إلى دين الله بالسيف ، وذلك بوجهين : إما بتحصيله عند عدمه مثل المحاربة مع الكفار ، وإما بإبقائه عند وجوده وذلك مثل قولنا : المرتد يُقتل ، وأما المؤذنون فهم يدخلون في هذا الباب دخولاً ضعيفاً ، أما دخولهم فيه فلأن ذكر كلمات الأذان دعوة إلى الصلاة ، فكان

ذلك داخلاً تحت الدعاء إلى الله ، وأما كون هذه المرتبة ضعيفة فلأن الظاهر من حال المؤذن أنه لا يحيط بمعاني تلك الكلمات ، وبتقدير أن يكون محيطاً بها إلا أنه لا يريد بذكرها تلك المعاني الشريفة ، فهذا هو الكلام ، في مراتب الدعوة إلى الله .

ـ **المسألة الثالثة** : قوله : ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله﴾ يدل على أن الدعوة إلى الله أحسن من كل ما سواها ، إذا عرفت هذا فنقول : كل ما كان أحسن الأعمال وجب أن يكون واجباً ، لأن كل ما لايكون واجباً فالواجب أحسن منه ، فثبت أن كل ما كان أحسن الأعمال فهو واجب ، إذا عرفت هذا فنقول : الدعوة إلى الله أحسن الأعمال بمقتضى هذه الآية ، وكل ما كان أحسن الأعمال فهو واجب ، ثم ينتج أن الدعوة إلى الله واجبة ، ثم نقول : الأذان دعوة إلى الله والدعوة إليه واجبة فينتج الأذان واجب ، واعلم أن الأكثرين من الفقهاء زعموا أن الأذان غير واجب ، وزعموا أن الأذان غير داخل في هذه الآية ، والدليل القاطع عليه أن الدعوة المرادة بهذه الآية يجب أن تكون أحسن الأقوال ، وثبت أن الأذان ليس أحسن الأقوال ، لأن الدعوة إلى دين الله سبحانه وتعالىٰ بالدلائل اليقينية أحسن من الأذان ، ينتج من الشكل

الثاني أن الداخل تحت هذه الآية ليس هو الأذان .

ـ **المسألة الخامسة** : الآية تدل على أن أحسن الأقوال قول من جمع بين خصال ثلاثة :

أولها : الدعوة إلى الله ، وثانيها : العمل الصالح ، وثالثها : أن يكون من المسلمين .

أما الدعوة إلى الله فقد شرحناها ، وهي عبارة عن الدعوة إلى الله بإقامة الدلائل اليقينية والبراهين القطعية ، وأما ﴿وعمل صالحاً﴾ فاعلم أن العمل الصالح إما أن يكون عمل القلوب وهو المعرفة ، أو عمل الجوارح ، وهو سائر الطاعات .

وأما قوله : ﴿وقال إنني من المسلمين﴾ فهو أن ينضم إلى عمل القلب وعمل الجوارح الإقرار باللسان ، فيكون هذا الرجل موصوفاً بخصالٍ أربعة :

أحدها ـ الإقرار باللسان .

وثانيها ـ الأعمال الصالحة بالجوارح .

وثالثها ـ الاعتقاد الحق بالقلب .

ورابعها ـ الاشتغال بإقامة الحجة على دين الله .

ولا شك أن الموصوف بهذه الخصال الأربعة أشرف الناس وأفضلهم ، وكمال الدرجة في هذه المراتب الأربعة ليس إلا لمحمد ﷺ .

قوله تعالى : ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة﴾ واعلم أنا بيَّنا أن الكلام من أول السورة ابتدئ من أن الله حكىٰ عنهم أنهم قالوا : ﴿ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ ﴾ [فصلت : ٥] . فأظهروا من أنفسهم الإصرار الشديد على أديانهم القديمة وعدم التأثر بدلائل محمد ﷺ ، ثم إنه تعالى أطنب في الجواب عنه ، وذكر الوجوه الكثيرة وأردفها بالوعد والوعيد ، ثم حكىٰ عنهم شبهة أخرى وهي قولهم ﴿ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ ﴾ [فصلت : ٢٦] . وأجاب عنه أيضاً بالوجوه الكثيرة ، ثم إنه تعالى بعد الإطناب في الجواب عن تلك الشبهات رغب محمداً ﷺ في ألا يترك الدعوة إلى الله ، فابتدأ أولاً بأن قال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ ﴾ [فصلت : ٣٠] . فلهم الثواب العظيم ، ثم ترقىٰ من تلك الدرجة إلى درجة أخرى ، وهي أن الدعوة إلى الله من أعظم الدرجات ، فصار الكلام من أول السورة إلى هذا الموضع واقعاً على أحسن وجوه الترتيب ، ثم كأن سائلاً سأل فقال : إن الدعوة إلى الله وإن

كانت طاعة عظيمة ، إلا أن الصبر على سفاهة هؤلاء الكفار شديد لا طاقة لنا به ، فعند هذا ذكر الله ما يصلح لأن يكون دافعاً لهذه الأشكال فقال : ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة﴾ والمراد بالحسنة دعوة الرسول إلى دين الحق ، والصبر على جهالة الكفار ، وترك الانتقام ، وترك الالتفات إليهم ، والمراد بالسيئة ما أظهروه من الجلافة في قولهم : ﴿قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه﴾ وما ذكروه في قولهم : ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾ فكأنه قال : يامحمد فعلك حسنة ، وفعلهم سيئة ، ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ، بمعنى أنك إذا اتسمت بهذه الحسنة تكون مستوجباً للتعظيم في الدنيا والثواب في الآخرة ، وهم بالضد من ذلك ، فلا ينبغي أن يكون إقدامهم على تلك السيئة مانعاً لك من الاشتغال بهذه الحسنة .

ثم قال : ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ يعني : ادفع سفاهتهم وجهالتهم بالطريق الذي هو أحسن الطرق ، فإنك إذا صبرت على سوء أخلاقهم مرة بعد أخرى ، ولم تقابل سفاهتهم بالغضب ولا إضرارهم بالإيذاء والإيحاش استحيوا من تلك الأخلاق المذمومة وتركوا تلك الأفعال القبيحة .

ثم قال : ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾

يعني إذا قابلت إساءتهم بالإحسان ، وأفعالهم القبيحة بالأفعال الحسنة تركوا أفعالهم القبيحة ، وانقلبوا من العداوة إلى المحبة ومن البغضة إلى المودة ، ولما أرشد الله تعالى إلى هذا الطريق النافع في الدين والدنيا والآخرة عظمه فقال : ﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ .

قال الزجاج : أي وما يلقى هذه الفعلة إلا الذين صبروا على تحمل المكاره ، وتجرع الشدائد ، وكظم الغيظ ، وترك الانتقام .

ثم قال : ﴿وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ من الفضائل النفسانية والدرجة العالية في القوة الروحانية ، فإن الاشتغال بالانتقام والدفع لا يحصل إلا بعد تأثر النفس ، وتأثر النفس من الواردات الخارجية لا يحصل إلا عند ضعف النفس ، فأما إذا كانت النفس قوية الجوهر لم تتأثر من الواردات الخارجية ، وإذا لم تتأثر منها لم تضعف ولم تتأذ ولم تشتغل بالانتقام ، فثبت أن هذه السيرة التي شرحناها لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم من قوة النفس وصفاء الجوهر وطهارة الذات ، ويحتمل أن يكون المراد ﴿وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ من ثواب الآخرة ، فعلى هذا الوجه قوله : ﴿وما يلقاها إلا الذين

صبروا﴾ مدح بفعل الصبر ، وقوله ﴿وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ وعد بأعظم الحظ من الثواب .

ولما ذكر هذا الطريق الكامل في دفع الغضب والانتقام ، وفي ترك الخصومة ذكر عقيبه طريقاً آخر عظيم النفع أيضاً في هذا الباب ، فقال : ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾ وهذه الآية مع ما فيها من الفوائد الجليلة مفسرة في آخر سورة الأعراف على الاستقصاء ، قال صاحب الكشاف : النزغ والنسغ بمعنى واحد وهو شبه النخس ، والشيطان ينزغ الإنسان ، كأنه ينخسه ببعثه على ما لا ينبغي ، وجعل النزغ نازغاً ، كما قيل : جد جده أو أريد ﴿وإما ينزغنك﴾ نازغ وصفاً للشيطان بالمصدر ، وبالجملة فالمقصود من الآية وإن صرفك الشيطان عما شرعت من الدفع بالتي هي أحسن ، فاستعذ بالله من شره ، وامضِ على شأنك ولا تطعه ، والله أعلم[1] .

---

(١) التفسير الكبير ـ مفاتيح الغيب ـ : ١٤/ ١٢٥ ـ ١٢٩ ، وللتوسع يراجع :

الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١٥/ ٣٤١ ، البحر المحيط لأبي حيان : ٧/ ٤٨١ ، الكشاف للزمخشري : ٤/ ١٤٧ ، تفسير أبي السعود : ٥/ ٢١ ، في ظلال القرآن لسيد قطب : ٤/ ١٤٢ .

إذاً :

هذا هو الترياق النافع في مخالطة الناس ، وهي فضيلة إسلامية جليلة ، ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ .

وذلك عن طريق الصبر على أذى المعارضين ، والصفح والعفو عن كل ما يصدر منهم ، فإذا أصرُّوا على إيذائك ، فكن مصرَّاً على الإحسان إليهم .

ورحم الله مَنْ قال : ما عاقبتَ من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه .

فإذا أحسنتَ إلى من أساء إليك ، كان ذلك منفذاً إلى محبتك والحنو عليك ، وبالتالي تُحوِّله حسناتك إلى صديق قريب .

وقريب من هذا المعنىٰ ما فسره ابن عباس رضي الله عنهما لقوله تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ١٩٩ـ ٢٠٠] . فقال : أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة ، فإذا

فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان ، وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم .

وهذه الرتبة لا يبلغها إلا من اتصفوا بصفات الرحمن كما جاء في القرآن : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] . وفي هذا امتياز خاص وحسنات كثيرة : ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٣] .

لذلك أكد رسول الله ﷺ في كثيرٍ من المناسبات على الدفع بالحسنىٰ ، من ذلك قوله : « اتق الله حيثما كنتَ ، وأَتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها ، وخالق الناسَ بخلقٍ حسن » وقوله : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » .

وأكثر شعرائنا يؤكدون على هذه المزية الرائعة ، من ذلك قول أحدهم :

وإن الذي بيني وبين بني أبي ... وبين بني عمي لمختلفٌ جِدًّا
أراهم إلى نصري بطاء ، وإنْ همُ ... دعوني إلى نصر أتيتهمْ شَدًّا
وإنْ يأكلوا لحمي وفرْتُ لحومَهُمْ ... وإنْ يهدِمُوا مجدي بنيتُ لهمْ مجدا
وإنْ زجروا طيراً بنحسٍ تمرُّ بي ... زجرتُ لهمْ طيراً تمرُّ بهمْ سعدا
وإنْ ضيَّعوا غيبي حفظتُ غيوبهم ... وإنْ هم هَوَوْا غيي هويتُ لهمْ رشدا

ولا أحمل الحقدَ الدفينَ عليهمُ فليس كريمُ القومِ مَنْ يحملُ الحقدا
لهم جلُّ مالي إن تتابعَ لي•غنىً وإنْ قلَّ مالي لم أكلفهمْ رِفْدَا

❊❊❊

أجل :

إنها صورة رائعة ترسم فضيلة من الفضائل ، حيث يقدر المرء على الانتقام ، ولكنه يعفو ويصفح ، ويدفع السيئة بالحسنة ، ليكون المؤمن الحقيقي ، الذي يسير على منهج القرآن الكريم وسيرة النبي الأعظم ﷺ .

وما أكثر التعليمات القرآنية والنبوية في هذا المجال الرائع ، من ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ ﴾ [البقرة : ٢٣٧] .

ذلك لأن الإنسان يحمل الخير والشر ، وبالتالي لا يمكن أن تكون أعماله كلها حسنة ، بل لابدَّ أن يتخلل ذلك بعض السيئات ، وإلا كان معصوماً وهذا يخالف ما جاءت به الشريعة الإسلامية ، من حيث إنه لا معصوم بعد المعصوم الأكبر رسول الله ﷺ ، فالعلاقة بين الأصدقاء أو الأقارب أو الجيران مثلاً ، يجب ألا تقف عند الرسميات ونحو ذلك ، بل يجب أن تندمج العلاقات في كثيرٍ من القضايا ، وبالتالي إذا أخطأ واحدٌ

منهم ، فعلى الآخرين ألا يحاكموه محاكمةً صارمةً وكأنه معصوم!! بل لابدَّ من تطبيق أمر رسول الله ﷺ : « اِلْتمسْ لأخيك عذراً ـ وفي رواية أخرى ـ سبعين عذراً » .

ثم إذا أخطأ معك في أمرٍ ما ، فعليك أن تلتفت إلى أمرٍ آخر ، فكم من الخدمات قدمها لك ؟ وكم من القضايا الحسنة والمواقف الرائعة وقفها معك ؟ ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن : ٦٠] .

وإلا إذا كنت ستقف عند كل غلطة ، فهذا يعني أنك لن تجد واحداً يصادقك أبداً .

إذا كنتَ في كلِّ الأمورِ معاتِباً صديقَكَ لم تلقَ الذي لا تعاتِبُهْ
ومَنْ ذا الذي ترضىٰ سجاياهُ كُلُّها كفى المرءَ نبلاً أن تُعَدَّ مَعَايِبُهْ

أما بين الزوج وزوجته فيجب أن تسود فكرة الصفح والتسامح ، لأنها إذا أخطأت ، فهي بشر تخطئ وتصيب ، فعليك أن تلتفت إلى الجوانب الخيرية التي قدتها لك ، فكم سهرت الليالي ؟ وكم عانت من مشاكل الحمل والولادة وتربية الأولاد ونحو ذلك ، فهل تبادرها بالإساءة والشتم وما إلى هنالك ؟ !

المنهج القرآني التعليمي هو قوله تعالى : ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة : ٢٣٧] .

وقوله تعالى : ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن : ١٤] .

وقول رسول الله ﷺ فيما رواه البيهقي في شعب الإيمان : « قال موسى بن عمران : يارب من أعزُّ عبادك ؟ قال : مَنْ إذا قدرَ غفَرَ » .

وقوله ﷺ وهو يرسم مشهداً من مشاهد يوم القيامة : « ينادي منادٍ يوم القيامة : مَنْ له أجرٌ على الله عز وجل فليقم ، فيقوم العافون على الناس » .

وقوله ﷺ لأبي هريرة : « يا أبا هريرةَ عليك بحسن الخُلُق » فقال أبو هريرة : وما حُسْنُ الخُلُق يارسول الله ؟ قال : « تصلُ مَنْ قطعك ، وتعفو عمَّنْ ظلمكَ ، وتُعطي مَنْ حرمَكَ » .

وهذا ليس كلاماً استهلاكياً يُطلق في الفراغ والهواء الطلق ، إنما عندما سمعه الرعيل الأول طبقوه على أنفسهم وأهليهم ، لذلك سطَّر التاريخ صفحات من نور ووقف حائراً أمام تراجم حياتهم . وعلى سبيل المثال لا الحصر :

الإمام زين العابدين : علي بن الحسين رضي الله عنهما تحدثنا ترجمة حياته أنه كان يجمع عبيده ومن حوله في رمضان ، ثم يقول لهم : لقد سامحتكم عن كل ما أخطأتم بحقي ، ثم يبكي ويبكون ، ثم يقول لهم : إني داعٍ فقولوا : آمين ، ويرفع يديه إلى السماء قائلاً : ربنا إنك أمرتنا أن نعفو عمَّن ظلمنا ، وقد عفونا كما أمرتنا ، فاعفُ عنا فإنك أولى بذلك منَّا ومن المأمورين .

وحين يأتي العيد ، يوزّع عليهم الجوائز ثم يعتق رقابهم قائلاً :

إن الله تعالى يعتق في كل ليلة من رمضان سبعين ألف عتيقٍ من النار ، فإذا كان آخر ليلةٍ منه أعتق الله فيها مثلما أعتق في جميع رمضان ، وإني لأحبُّ أن يراني الله وقد أعتقتُ رقاباً في ملكي في دار الدنيا ، رجاء أن يُعتق رقبتي من النار يوم القيامة!!

وذات مرة كان له جارية تسكب له ماء الوضوء من إبريق تحمله ، فسقط الإبريق من يدها فشج رأس الإمام وسال دمه ، فرفع رأسه ينظر إليها ، فقالت وهي خائفة : ياسيدي.. يقول الله تعالى في كتابه الحكيم : ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

فقال زين العابدين بكل هدوء : ياهذه لقد كظمت غيظي .

قالت : ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

فقال : عفوتُ عنك .

فقالتْ : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

فقال : أنتِ حُرَّةٌ لوجه الله تعالى ! ![1] .

. . . وذلك الخليفة الأول (أبو بكر الصديق) رضي الله عنه ، كان له غلام يدعىٰ (مسطح) ، وكان مسطح يتيماً فقيراً ، فكان أبو بكرٍ ينفق عليه وعلى أقربائه ، ولما كانت حادثة الإفك خاض مسطح في اتهام عائشة رضي الله عنها مع الخائضين ، فما كان من أبي بكرٍ إلا أن طرده بعد أن قطع عنه الرفد والعطاء .

فقال مسطح لأبي بكر : أنشدك الله والإسلام والقرابة والرحم ألا تحوجنا إلى أحد .

لكن أبا بكرٍ أصرَّ على ذلك ولم يقبل عذره ، وخرج

---

(١) للتوسع في ذلك يراجع كتاب : ومضات من حياة السَّجَّاد زين العابدين ، للمؤلف : ١٣٧ ـ ١٥٩ .

مسطح مع أهله من بيت أبي بكرٍ وهم حائرون لا يعرفون أين المآل .

ويشاء الله سبحانه أن ينزل في هذه القصة آيات تتلىٰ إلىٰ يوم يبعثون ، فهبط الأمين جبريل على قلب النبي ﷺ بقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور : ٢٢] .

فأسرع أبو بكرٍ إلى غلامه مسطح ، وأعاده مع أهله ، ثم زاد من عطائه لهم ، وقال : لقد فعلتُ ذلك إذ سخط الله عليكم ، أما وقد عفا عنكم ، فمرحباً بكم ، وما أنزل الله على العين والرأس .

ورحم الله القائل ناصحاً وموجِّهاً :

إذا اعتذرَ المسيءُ إليكَ يوماً ... من التقصيرِ عُذرَ فتىً مصرِّ
فصنْهُ عن عقابِكَ واعفُ عنهُ ... فإنَّ الصفحَ شيمةُ كُلِّ حُرِّ

ورحم الله الآخر ، الذي عاهد نفسه على العفو عن الناس ، والدفع بالتي هي أحسن :

سألزم نفسي الصفحَ عن كل مذنبٍ ... وإنْ عظمتْ منهُ عليَّ الجرائمُ
فما الناسُ إلا واحدٌ من ثلاثةٍ ... شريفٌ ومشروفٌ ومثلي مقاومُ

فأما الذي فوقي فأعرف فضلَهُ وأتبعُ فيه الحقَّ ، والحقُّ لازمُ
وأما الذي دوني فإن قال منكراً صفحت لهُ عنه وإنْ لامَ لائمُ
وأما الذي مثلي فإنْ زلَّ أو هفا تفضلتُ إن الفضلَ بالحلم حاكمُ

ونختم بالعهد الذي أخذه رسول الله ﷺ على أعرابي جاء يسأله ، فقال : « لا تسبنَّ أحداً ، ولا تحقرنَّ شيئاً من المعروف ، وأن تكلمَ أخاكَ وأنت مبسطٌ إليه وجهك ، إن ذلك من المعروف ، وإنِ امرؤٌ شتمك وعيَّركَ بما يعلم فيكَ فلا تعيِّرْهُ بما تعلمُ فيه ، فإنما وبالُ ذلك عليه » .

نسأل الله أن يخلِّقنا بهذه الأخلاق الفاضلة ، إنه على ما يشاء قدير .

* * *